الفصل الثالث

الفتوح الإسلامية والبحرية الإسلامية

طبيعة الفتوح الاسلامية ـ عوامل سرعتها ـ معاوية وقيام البحرية الاسلامية ـ اهميتها للدولة الاسلامية ـ انتصار المسلمين البحرى فى قبرص غزوة الصوارى ـ قواعد الاسطول الاسلامى فى حوض البحر المتوسط ـ توافر المواد الخام ـ قطع الاسطول الاسلامى ـ النار الاغريقية ـ ابن خلدون والسيادة البحرية الاسلامية .

هذا هو مجمل الوضع السياسى والأحوال العامة لعالم البحر المتوسط، عندما بدأت الفتوح الإسلامية.

ولقد بدأ بالفتح الإسلامى طور جديد فى تاريخ البحر المتوسط، وفى تاريخ الإنسانية، فلم يكن ظهور الإسلام على سواحله بالحادث المؤقت الذى سرعان ما تمحى آثاره، بل على العكس، كان انبثاق فجره ظاهرة دائمة مستمرة، صحبها تبديل جوهرى فى ثقافة المواطنين فى أغلب بلاد هذا البحر وفى كل صقع وصلت إليه الفتوح الإسلامية. ولم يزل أثر ذلك التغير، يمثل الحقيقة الكبرى والظاهرة الجوهرية التى تميز هذا الجزء من العالم (١).

ومما يدعو للدهشة، تلك السرعة الهائلة، وذلك اليسر العظيم الذى رافق الفتح العربى الإسلامى أينما سار، ولعل مرجع هذا، هو ذلك الإجهاد العظيم الذى ألم بالدول التى قدر لها أن تحتك بالدولة الاسلامية، رغم تفوقها البحرى، ثم إلى ما سمع ولمس عن خصائص الإسلام وطبيعة تعاليمه القائمة على التسامح وهذا أمر لم يؤلف فى تلك الفترة المليئة بالفتن المذهبية والصراع الدينى، وهذا ما حمل سكان شواطئه الشرقية والجنوبية والغربية، على الترحيب بالفتح الإسلامى، وأصدق دليل على ذلك أن مصير الشام تقرر فى معركة واحدة، هى وقعة اليرموك ١٥ هـ — ٦٣٦ م، كما تقرر مصير مصر فى واقعة واحدة هى وقعة حصن بابليون ٢٠ هـ — ٦٤١ م وكذلك تقرر مصير أسبانيا فى واقعة واحدة هى واقعة وادى لكه Lakko أو فحص شريس Xeres عام ٩٢ هـ — ٧١١ م (٢).

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٠ (مقدمة شفيق غربال)، ص ٨٧ (ترجمة أحمد عيسى).

(٢) أرشيبالد لويس ص ٨٧ — ٨٨، Ivo. G. H., History of The Byzantine Empire. PP. 40 - 52.

ومن أسباب شرعة الفتح الإسلامى كذلك ، ذلك الحماس الدينى الذى بثه الإسلام فى قلوب الفاتحين ، وحسبى شاهد أو شاهدان من بين آلاف الشواهد ، دليلا على هذا الحماس :

فهذا عقبة بن نافع ، الملقب بقاهر الروم والبربر ،أوطأ جيوشه أرض السوس الأدنى ، ودحر البربر والروم ، ثم وقف على ساحل المحيط الأطلسى ، ثم اندفع إلى البحر بفرسه ، حتى وصل الماء إلى ركابه ، ثم انتضى سيفه وهزه قائلا :

« اللهم فاشهد ، أنى لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته غازياً فى سبيلك». وفى عودته أحاط به البربر والروم براً وبحراً ،واشتدت نكاية العدو بالمسلمين ، وكان أبو المهاجر دينار ، من موالى المسلمين ووالى أفريقية قبل عقبة ، مقيداً بالحديد (١) ، فسمع بشدة وطأة البربر والروم على المسلمين ، ففاض به الحزن ، وتمثل بقول أبى محجن الثقفى (٢) :

كفى حزناً أن ترتدى الخيلُ بالقنا وأترك مشـــدوداً علىّ وثاقياً
إذا قمت عنّانى الحديد وأغلقت مصارع من دونى تصم مناديا

---

(١) كان عقبة قد أساء معاملة أبى المهاجر دينار . حين عاد إلى ولاية أفريقية زمن يزيد بن معاوية ، فقد قبض على أبى المهاجر وقيده بالحديد ، وكان ذلك جزاء وفاقاً لما فعله أبو المهاجر من قبل زمن معاوية . إذ أساء عزل عقبة عن ولاية أفريقية سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠م.

(٢) أبو محجن الثقفى مولى عبد العزيز بن مروان ، واسمه نصيب بن رباح ، وأمه نوبية ، فجاءت به أسود ، وباعه عمه ، وله قصة طريفة فى بيعه وعتقه ، وتوفى عام ١٠٨ هـ ٧٢٦ م . (راجع الأغانى ج ١ ص ٣٣٣ — ٣٣٧ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٥٠ — ٥٤ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٩ ، ٢٠٦) .

فأطلقه عقبة ، وأمره باللحاق بالمسلمين قائلا له : « الحق بالمسلمين ، وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة » . فرفض أبو المهاجر وقال : « وأنا أيضاً أريد الشهادة : » . فقاتل الاثنان حتى قتلا فى معركة تاهوده عام ٦٢هـ — ٦٨٢ م (١) .

ثم ذاك زهير بن أبى قيس البلوى العابد الزاهد ، ولى أفريقية عام ٦٩ هـ — ٦٨٨ م ، زمن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، قضى على البربر وزعيمهم كسيلة الأوربى من البربر البرانس ، وأصر على مغادرة أفريقية خوف الفتنة ، لأنه رأى بها ملكا عظيماً ، ومما قاله :

« قدمت للجهاد . فأخاف أن أميل إلى الدنيا ، فأهلك ! » . وقتل فى عودته أيضاً أمام الروم الذين بعثوا بأسطول حربى (٢) .

البحرية الاسلامية . . . .

وسر نكبة عقبة وزهير بن قيس البلوى هو افتقارهما إلى القوة البحرية ، فضلا عن مرارة الكفاح فى شمالى أفريقية (٣) . حقيقة إن العرب قد امتلكوا البر ، غير أن البحر لم يزل فى قبضة أعدائهم من الروم بصفة خاصة .

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، العبادى ص ٣٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ ، العبادى ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٥ — ٥٠ ، العبادى ص ٣٥ — ٣٦ .

والمعروف أن العرب المسلمين قد عمدوا إلى اتخاذ قواعد حكمهم بعيداً عن ساحل البحر ، كما فى دمشق والفسطاط ، على حين اتخذها أسلافهم من اليونان والرومان على الساحل ، كما فى أنطاكية والإسكندرية (١) ، إلا أن الضرورة قد أجبرت العرب على الاهتمام بالبحر ، ففضلا عن الاعتبارات العسكرية ، هناك أهمية البحر الاقتصادية ، فهو طريق هام للتجارة العالمية ، وزاد فى تنبيه العرب إلى أهمية البحر ، تلك الحملة البحرية التى أرسلها البيزنطيون عام ٢٥ هـ — ٦٤٥ م عقب فتح مصر ، واستولت على الإسكندرية ، ولم تطرد إلا بعد جهد عنيف (٢) ، ثم تلك المقاومة العنيدة التى أبدتها مدينة أرواد : Aratus ، آخر حصن بحرى قوى للبيزنطيين فى سوريا ، بسبب الأمدادات التى وصلتها عن طريق البحر (٣).

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان ، أول من نظم أسطولا فى الإسلام ، وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو فى البحر المتوسط . استأذن معاوية ، وهو يلى الشام من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ، لكى يسمح له الخليفة بركوب البحر ، لاعتزامه فتح جزيرة قبرص . وما قاله معاوية لعمر :

« يا أمير المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص ، فاتهمه الخليفة ،

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأثير أن من أسباب عودة الروم إلى الإسكندرية ، أن الروم قد « عظم عليهم فتح المسلمين للاسكندرية ، وظنوا أنهم لا يمكنهم البقاء ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم ، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح ، فأجابوهم إلى ذلك » وكان هذا النقض على غير رغبة المقوقس الذى ثبت على صلحه (راجع ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٣ — ٣٤) وانظر إبراهيم العدوى : الدولة الاسلامية والإمبراطورية الروم ص ٦٠ — ٦٣)

(٣) فيليب حتى ص ١٦٧

لأنه ، المشير بذلك ، وكتب إلى عمرو بن العاص ، والى مصر ، أن « صف لى البحر وراكبه ، فإن نفسى تنازعنى إليه » أجابه عمرو :

« إنى رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب وإن تحرك ، أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . فلما وقف عمر على كتاب والى مصر ، كتب إلى معاوية :

« لا والذى بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً أبداً »(١) .

وفى خلافة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥هـ = ٦٤٤ — ٦٥٦ م) ، أعاد معاوية طلبه موضحاً أهمية البحر ، فأذن له عثمان وأوصاه « لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه »(٢) واستمع معاوية لنصيحة عثمان . واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثى ، حليف بنى فزارة(٣) .

وهكذا قامت البحرية الإسلامية ، وتشجع المسلمون على ركوب البحر وارتياده ، ولاسيما بعد انتصارهم على قبرص عام ٢٨ هـ — ٦٤٨ م وانتصارهم الساحق على البحرية البيزنطية عام ٣١ هـ — ٦٥١ م فى الوقعة المعروفة بأسم « غزوة الصوارى » . وهى وقعة هامة ، إذ اطمأن المسلمون بها على إمكان تفوقهم البحرى ، بعد أن انتصروا على صاحبة أقوى بحرية معاصرة .

---

(١) الطبرى حـ ٥ ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٥٢ .

(٣) يقال إن عبد الله بن قيس الفزارى غزا خمسين غزوة بحرية ، « من بين شاتية وصائفة ، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فى جنده ، وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم »

(الطبرى حـ ٥ ص ٥٣ ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٩ — ٤٠) .

كان الأسطول الإسلامى يتكون من مائتى سفينة ، وعليه بحارة من المصريين والسوريين ، وتراوحت سفن الأسطول البيزنطى بين ٧٠٠ وألف سفينة .

ويقول مؤرخو المسلمين : إن الروم قد خرجوا فى جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام »(١) . التقى الأسطولان عند موضع فوينكس Foeaix على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، ويقود الأسطول البيزنطى الإمبراطور قنسطانز الثانى نفسه Constans II (٦٤١ — ٦٦٨ م) ، وعلى الأسطول الإسلامى معاوية بن أبى سفيان ، ويقود أهل الشام ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر ، وإليه أمر البحرية الإسلامية .

بات المسلمون يقرأون القرآن . بينما أخذ الروم يضربون بالنواقيس وربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض . بسلاسل قوية وذلك لمهارتهم فى الحروب البرية من غير شك ، استحال على عدوهم أن يخترق صفوفهم وانتهت المعركة بتدمير الأسطول البيزنطى ، وهرب الإمبراطور إلى صقلية ، حيث عنفه أهلها لخيبته ، وعما قالوه له « أهلكت النصرانية ، وأفنيت رجالها ، لو أتانا العرب ، لم يكن عندنا من يمنعهم(٢)» ثم أدخلوه الحمام وقتلوه .

اطمأن المسلمون إلى قوتهم البحرية ، فأولوها أكبر العناية . ومعاوية ابن أبى سفيان ، سواء أكان فى ولايته ، أم فى خلافته ، هو صاحب الفضل الأول فى ارتياد المسلمين البحر وتنظيم البحرية الإسلامية ، ويقال إن جملة ما أنفقه فى بناء السفن فى مصر بلغت نحو سبعة آلاف دينار

---

(١) ابن الأثير حـ ٣ ص ٤٨ .

(٢) ابن الأثير حـ ٣ ص ٤٨ — ٤٩ ، الطبرى حـ ٥ ص ٦٩ — ٧١ ، أرشيبالد لويس ص ٩١ — ٩٢ ، العدوى ص ٦٣ .

سنوياً ، وذلك خلال الأربعين سنة التى تلت الفتح العربى الإسلامى لمصر (١) .

سار معاوية وخلفاؤه من بعده على منهج البيزنطيين فى تنظيم البحرية ، وساعدهم على ذلك ، ما خلص لهم من دور الصناعة والمعدات البحرية ، فى سوريا والإسكندرية ، وفضلا عن السفن التى غنموها فى وقائعهم البحرية . فكان لدى المسلمين سفن معدة للعمل ، وأخرى سهلة الإنشاء ، يضاف إلى ذلك ، السفن التجارية التى يملكها أهل البلاد فى مصر وسوريا ، وهذه يسهل تحويلها إلى سفن حربية عند الحاجة .

استقدم معاوية بناة السفن من المصريين لبناء أسطول فى عكا ، وهى التى غدت أهم قاعدة بحرية فى الشام ، وكانت السفن تبنى فى القلزم والفسطاط والإسكندرية . وفى زمن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ — ٧٠٥ م) ، أنشئت قاعدة بحرية فى قرطاجنة . وأرسل من أجل ذلك ألف صانع مصرى من بناة السفن بأسرهم (٢) ، وفى زمن الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ — ٧١٥ م) ، صارت هذه القاعدة على بحيرة ، حرص موسى ابن نصير على أن يتصل بالبحر ، إذ كان موسى يدرك سر حماية خطوط مواصلاته البرية بعمليات بحرية . (٣) .

وفى حوض البحر المتوسط الغربى ، قامت البحرية الإسلامية من الأندلس ، وهذه لم تنظم وتكتمل إلا زمن عبد الرحمن الثالث الملقب

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢١ ، ١١٦ .

(٢) أرشيبالد لويس ص ٢١ ، ١١٦ ، حسن حسنى عبد الوهاب : قوصره (المجلة التاريخية المصرية م ٢ عدد ٢ أكتوبر ١٩٤٩ م) ص ٥٨ .

(٣) أرشيبالد لويس ص ٢١ .

بالناصر (ت ٣٥٠ هـ - ٩٦١) . ويرجع السبب فى ذلك إلى عدم اكتراث الدولة الأموية فى الأندلس بتكوين تجربة قوية منظمة دائمة ، غير أن هذا لا ينفى وجود بحرية إسلامية فى الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر ، واشتغال الكثير من مغامرى المسلمين فى أسبانيا فى الأساطيل الإسلامية فى البحر المتوسط . فقد تنبه الأمويون فى الأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، إلى أهمية وجود تجربة دائمة لهم ، وذلك زمن عبد الرحمن الأوسط (ت ٢٣٨هـ - ٨٥٢م) بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، كان ذلك على أثر غارة المجوس (النورمان) عام ٢٠٩هـ - ٨٢٤م ، لشواطىء أسبانيا ، حيث نزلوا عند الأشبونة (١) (لشبونة) Lisbòa ، وغنموا وعادوا قبل أن يتمكن المسلمون من اللحاق بهم . ولم يكف النورمان عن قرع شواطىء أسبانيا ، فأغاروا مرة أخرى على شرقى الأندلس ووصلوا إلى سواحل غانة الجنوبية ، وفى عودتهم ، هزمهم المسلمون فى البحر (٢) . وعندئذ انصرف النورمان عن الأندلس ، لفترة ، ولما كانت هذه الغارات البحرية مفاجئة لمسلمى أسبانيا ، استقر الرأى على إنشاء بحرية دائمة منظمة لحماية بلادهم (٣).

وتم تنظيم البحرية فى الأندلس ، واستكمالها ، زمن عبد الرحمن الناصر ، وتركز غالب القواعد البحرية فى أسبانيا على طول الساحل الشمالى الشرقى بين طرطوشه Sortosa (٤) وبلنسيه Valencia (٥) ، وكان ذلك

---

(١) وردت فى المراجع العربية باسم أشبونه أو الأشبونه (انظر الروض المعطار ص ١٦ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٢٢) .

(٢) انظر البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣٠ - ١٣٢ . أعمال الأعلام ص ٢٠ .

(٣) العبادى ص ١١٠ - ١١١ .

(٤) الروض المعطار ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٥) الروض المعطار ص ٤٧ - ٥٥

للفداء المستحكم بين مسلمى أسبانيا وبين دولة الفرنجة ، وملوكها يومئذ من الكارولنجيين خلفاء الميروفنجيين ، مع ملاحظة أن بحرية الفرنجة كانت ضعيفة . ودون البحرية الإسلامية . ولا سيما زمن لويس التقى ابن شارلمان (٨١٤ — ٨٤٠م) .

وكانت مدينة المرية Al mria(١) ، فى الجنوب الشرقى من أسبانيا ، هى القاعدة الرئيسية للبحرية الأندلسية ؛ وفيها معظم دور الصناعة ؛ كذلك وجد فيها أسطول دائم تألف من مائتى سفينة ؛ ويليها فى الأهمية قاعدة بجايه Bougie(٢) وطراكونه Tarragona(٣) ثم طرطوشه ولقنت(٤) Alicante شمالى مرسية ؛ وكذلك شريش Yerez وطرش Tourox وشلب(٥) Silves وقرطاجنة وبجانه(٦) Bechina . ومن القواعد البحرية الأندلسية أيضا الجزيرة Algeciras جنوبى جبل طارق ويابسة(٧) Ivisa إحدى جزر البليار . ولعل أعمر المناطق بالنشاط البحرى ، هى المنطقة الواقعة بين لقنت وأكيله AquiIa ، وأهمها اسكمبره Escambera ، وهى فى جزيرة فى

---

(١) الروض المعطار ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٢ ، مؤنس ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٣) الروض المعطار ١٢٥ — ١٢٦ .

(٤) الروض المعطار ص ١٧٠ .

(٥) الروض المعطار ص١٠٦ .

(٦) الروض المعطار ص ٣٧ — ٣٩ .

(٧) الروض المعطار ص ١٩٨ .

حوض البحر الأبيض الغربى ، عند مدخل خليج قرطاجنة الأندلسى . وهى المعروفة بقرطاجنة الخلفاء (١) .

ولأسطول المحيط الأطلسى الإسلامى قاعـــدة هى الأشبونة أو (لشبونة) . . وفى كل قاعدة دار صناعة وإدارة خاصة للأساطيل ، وفى وقت السلم يرابط عدد من السفن فى هذه القواعد ، وهذه تتجمع كلها فى مكان واحد فى وقت الحرب . ولكل سفينة قبطان مسئول عن الأسلحة والمحاربين ، وكبير للبحارة أو رئيس — كما يقول ابن خلدون — : « يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه فى مرفئه »(٢)

والملاحظ أن لرجال البحرية أجوراً عالية ، ويعتبر أمير البحر فى دولة بنى أمية بالأندلس « أحد الكبار الأربعة الذين تعتمد عليهم الدولة، ويقال له « قسيم الخليفة » فى السلطان ، فهذا يحكم البر وذاك يحكم البحر » (٣)

وبسيادة المسلمين على نحو ثلثى البحر الأبيض وجزائره، أضحى لهم قواعد بحرية ممتدة من شرقه إلى غربه : فى عكا والإسكندرية . وجزيرة كريت وتونس وصقلية وباره Bari وجاريليانو Garigliano وطارنت Tarant بجنوبى

---

(١) توجد ثلاث مدن بهذا الاسم ، إحداها الواقعة بأفريقية قرب تونس الحالية ؛ بينما تقع الثانية والثالثة بالأندلس ، وهما قرطاجنة الجزيرة عند جبل طارق وهى مدينة قديمة مهجورة ، وقرطاجنة الحمراء فى إقليم مرسية . وهى ميناء صالحة للرسو (انظر الروض المعطار ص ١٥١ — ١٥٢ ، انظر كذلك : مؤنس ص ١٢٢ — ١٢٣ ، كلينيا : مجاهد العامرى ص ١٨٥ — ١٨٦)

(٢) المقدمة ص ٢٨٢

(٣) ارشيبالد لويس ص ٢٤٢

إيطاليا ، وعند ساحل نابلى فى جزيرة بونتزا Pontza ، وفى جنوبى فرنسا على ساحل بروفانس فى فراكسنتم Fraxinetum ، وكذلك فى جزيرة كامرج Camergue وفى مدينة ماجلون Maguelonne غربى نهر الرون، هذا بالإضافة إلى قواعد جزر البليار: ميورقة Majarca ومينورقة Minorca ويابسة (١) gvisa ، وقواعد سواحل إسبانيا .

واقتسم هذه القواعد أربعة أساطيل إسلامية وهى : أسطول سوريا ، وأسطول مصر؛ وأسطول شمالى أفريقية وصقلية؛ وأسطول الأندلس؛ على أن أهم مراكز القوى البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض ماكان فى الوسط ؛ وهو شمالى أفريقية وصقلية ؛ زمن الأغالبة والفاطميين من بعدهم(٢) .

ويقابل هذه الأساطيل الإسلامية ؛ أساطيل بيزنطة ؛ فهناك أسطول مركزى إمبراطورى فى القسطنطنية ؛ ويقابل هذا أسطول مصر؛ وأسطول بجنوب آسيا الصغرى وقواعده فى جزر بحر إيجة وجزر السيكلاديز والدوديكانيز ويقابله أسطول سوريا ؛ ثم أسطول غربى البحر الأبيض ويقابله أسطول شمالى أفريقية (٣) .

وبانتقال الجزر الهامة فى البحر الأبيض إلى أيدى المسلمين . فضلا عن أغلب سواحله؛ توافر لهم الحصول على المواد الأولية اللازمة لبناء السفن؛

---

(١) انظر الخريطة

(٢) ارشيبالد لويس ص ٢٥١

(٣) ارشيبالد لويس ص ١١٣ ـ ١١٤ ؛ ٢٢٩ ، بيتز ص ١٨٢ ـ ١٩٠

وقد أمدنا البلاذرى واليعقوبى وياقوت والاصطخرى وابن حوقل والإدريسى والمقرى وغيرهم ؛ بأنواع المواد التى توافرت للمسلمين ؛ نتيجة للسيطرة البحرية ؛ فحصلوا على الخشب والحديد من صقلية وشمالى أفريقية غربى تونس ؛ ومن الأندلس قرب طرطوشه ؛ وكذلك من ساحل الأناضول الجنوبى وجبال قليقيا ؛ وعن طريق التجارة مع البندقية حصلوا على الخشب والحديد اللذين يكثران فى شمالى إيطاليا وإقليم التيرول وذلك رغم احتجاجات البابوية على المتاجرة مع المسلمين فى المواد الحربية (١)

أما قطع الأسطول الإسلامى نفسه ، فهذه تنوعت فى الحجم والنوع والوظيفة . فمنها .

الشوانى : جمع شينى أو شينيه ، وهى أهم قطع الأسطول الإسلامى وأطولها ، وتجدف بـ١٤٣ مجدافا ، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وكذلك بها أهراء لخزن القمح وصهاريج للماء. ويقابلها فى اللغة الفرنسية (Galaie) (٢)

الحراريق : جمع حراقة وهى نوع من السفن يستخدم لحمل الأسلحة النارية مثل النار الإغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو ، ووجد فى مصر نوع من الحراقات استخدم فى النيل لحمل الأمراء ورجال

---

(١) ارشيبالد لوبس ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، المقرى نفح الطيب ج ١ ص ٩٣ — ٩٤ ؛ Scott II pp 57 - 61

(٢) مفرج الكروب ج ١ ص ١٣ حاشية ١ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٨١ ؛ المقريزى السلوك ج ١ ص ٣٠٦ حاشية ٣ المقريزى خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ : مؤنس : المسلمون فى البحر الأبيض ص ١٠٩

الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية (١)

البطس : جمع بطسة ، وتشتمل على عدة طبقات وبها أكثر من أربعين شراعا ، وتستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة وكذلك الرجال ، ويقال إنها تحمل نحو ١٥٠٠ شخص (٢).

البركوس : مركب صغير (٣).

الغراب : نوع من السفن ، وسمى كذلك لأن مقدمة هيكلها على شكل رأس غراب والجمع أغربة وغرابى (٤).

المسطحات : جمع مسطحة ومسطح ، وهى من كبار السفن (٥).

الطرائد : جمع طريدة لنقل الحبوب (٦).

الشلنديات : جمع شلندى ، وهى من كبار السفن المسطحة لنقل البضائع (٧).

---

(١) المقريزى خطط جـ ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ ، المقريزى السلوك جـ ١ ص ٣٠٦ حاشية ٣ ابن إياس بدائع الزهور جـ ٤ ص ٥٢ — ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣١ حاشية ١ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٧٣ . مؤنس: المسلمون فى البحر الأبيض ص ١٠٩ — ١١٠

(٢) ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٧٧ حاشية ١ ، مؤنس: المسلمون فى البحر الأبيض ص ١١٠

(٣) المقريزى السلوك جـ ١ ص ٩٩١ حاشية ٢ . ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ حاشية ٢

(٤) مؤنس : المسلمون فى البحر الأبيض ١١٠

(٥) المقريزى السلوك جـ ١ ص ٣٣٩ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٧٤

(٦) مؤنس : المسلمون فى البحر الأبيض ١١٠

(٧) المرجع السابق

القرانير : جمع قرقورة لنقل المؤن .

الحمالات : جمع حمالة لحمل الذخيرة .

الطرادات : جمع طراد وطرادة وهى مركب صغير أكثر شبها بالبرميل وليس لها سطح ، وتستخدم فى مطاردة العدو لسرعتها ، وكذلك تستعمل فى حمل الخيول والفرسان (١) .

الدرمونة : مركب كبير لنقل الغلال ، وتستخدم فى مصر لنقل الغلال من الأهراء السلطانية وإليها وحمولتها خمسة آلاف إردب ، وهى مشتقة من الكلمة اليونانية (Drams) بمعنى السفينة (٢) .

الشبابيك : جمع شبك أو شباك ، وهى سفينة صغيرة لها ثلاثة قلاع (٣) .

الفلايك : جمع فلوكه ، وهى سفينة صغيرة تتحرك بالمجاديف (٤) .

القوارب والزوارق : مراكب من غير شراع لنقل الأشخاص (٥) .

وجهزت الأساطيل الإسلامية بالنار الإغريقية Greek Fire وكان هذا سلاحاً سرياً أخفته بيزنطة إذ يرجح أن الأسطول الإمبراطورى الرئيسى فى القسطنطينية قد احتفظ لنفسه بهذا السلاح السرى الرهيب فى

---

(١) المرجع السابق . المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٦ . ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢

(٢) خليل الظاهرى زبدة كشف الممالك ص ١٢٢ — ١٢٣ ، بيتر الإمبراطورية البيزنطية ترجمة مؤنس وزميله ص ١٩٠

(٣، ٤، ٥) مؤنس المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٠

ذلك الوقت إلا فى الحالات الطارئة ؛ حيث يسمح للوحدات البحرية الأخرى باستخدامه . وكان هذا السلاح هو العامل الحاسم فى انتصار البيزنطيين على الأسطول الإسلامى الذى حاصر القسطنطنية سبع سنوات بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة سليمان بن عبد الملك (١) . ويبدو أن هذا السلاح استخدم لأول مرة عند البيزنطيين (عام ٥١٦ م) أى على زمن الإمبراطور أنستاسيوس الأول Anastasius (٢) ثم اكتشف من جديد أو أدخل عليه تحسينات ؛ ولنجاح هذا السلاح فى إنقاذ العاصمة البيزنطية إبان أزمانها المختلفة ، أثره فى زيادة الاعتقادات بكرامات القديسين وعبادة الصور المقدسة (٣) .

وهذا السلاح عبارة عن مواد ملتهبة من بينها ملح البارود ، ومن خصائصه الاشتعال عند ملامسته للهدف ؛ استخدمه المسلمون لأول مرة عند غارات الأغالبة على صقلية عام ٢٢٠ هـ ، ٨٢٥ م ؛ ولعل خيانة فيمى Euphemius البيزنطى فى صقلية ، وخروجه على الإمبراطور ميخائيل العجوز (٨٢٠ — ٨٢٩م) واستبداده بالحكم فى الجزيرة ، لفترة من الزمن صلة بنقل هذا السلاح إلى المسلمين؛ وذلك حين لجأ هذا الثائر إليهم بشمالى أفريقية ، وعاد بجيش إسلامى ، ولكن الجيش الإسلامى لم يلبث أن عمل لحسابه لا لحساب هذا المغامر (٤) كذلك استخدم المسلمون هذا السلاح فى الهجوم على سالونيكا عام ٢٩٣ هـ / ٩٠٤ م وبهذا السلاح

---

(١) انظر ابن الأثير ج ٥ ص ٧٧ Vossilie A . A . History of the Byzantine Empire p 285 C. Med . H . Vol IV p . 3 .

(٢) حكم من ١٩١ الى ٥١٨ م

(٣) انظر الحركة اللاايقونية فى الدولة البيزنطية للمؤلف ص ٣ — ٨

(٤) C. Med. H., Vol. IV. pp. 134-5 ، وانظر ما يلى :

أحرق الفاطميون سفن أعدائهم فى البحر الثيرانى Tyrrherian Sea عام ٣٢٥هـ/ ٩٣٥م. (١)

وبالإضافة إلى هذا السلاح الجديد ؛ لم يستغن العرب عن استخدام الخيول ؛ عماد حروبهم؛ حتى فى الحروب البحرية ؛ فكانوا ينقلون الخيول على سفنهم ؛ وينزلونها إلى البر فى غزواتهم المختلفة ؛ وقد ساعدتهم هذه الخيول على اقتناص الأسرى والاستيلاء على المغانم .

والملاحظ أن استخدام الخيول على هذا النحو ؛كان مثلا احتذاه الغزاة الشماليون من الفيكنج Vikings ؛ بدأ هؤلاء يهبطون على سواحل أوربا الغربية خلال القرن التاسع الميلادى ؛ ولما لم يكن لدى الشماليين خيول فى بلادهم الشمالية ؛ فإنهم كانوا يجمعونها من السواحل التى ينزلون فيها (٢) . كذلك كان ضمن معدات أسطول صقلية ؛ الاحتفاظ بأسراب من الحمام ؛ للاتصال السريع بين مختلف وحدات الأسطول أو مع القيادة العامة فى البر (٣) .

هذه هى القوة البحرية الإسلامية ، التى ضمنت السيادة البحرية للمسلمين فترة من الزمن ؛ يقول ابن خلدون :

« وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية ، قد غلبوا على هذا البحر من

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٤٢ — ٢٤٣

(٢) Deanesly, OP. Cit., pp. 374-376

(٣) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٢

جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم أو بشيء من جوانبها ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه،مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج... والمسلمون خلال ذلك كله. قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر،وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تجتاز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير — أي إيطاليا — المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الأفرنج وتثخن في ممالكهم . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة والجزائر الرومانية، لا يعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح . . . »(١) .

ورغم هذا التفوق ، فإن وجود ثلاث خلافات إسلامية في العالم الإسلامي . كان من أكبر عوامل التفكك للوحدة الإسلامية ، ومن ثم تفوقت البحرية البيزنطية على البحرية الإسلامية في كثير من الأوقات على الرغم من الانتصارات الرائعة التي حققتها البحرية الإسلامية،وبمقارنة البحرية الإسلامية ببحرية الفرنجة . كانت البحرية الإسلامية أقوى منها إذ كانت قوة الفرنجة كامنة في جيشها البري ، ومع ذلك كان باستطاعة

---

(١) المقدمة ص ٢٨٢ — ٢٨٣

الفرنجة زمن الكارولنجيين بصفة خاصة أن يحشدوا سفنا فرنجية وإيطالية ويشحنوها بالمقاتلة عند الضرورة . وجهد الفرنجة فى تكوين قوة بحرية لحماية شواطىء بلادهم من المسلمين . فأقام بيبه ومن بعده شارلمان ، القلاع البحرية على سواحل فرنسا الجنوبية ، وكافحوا الغزوات الإسلامية ، إلا أن حماية الفرنجه للمسحيين المقيمين بجزر البحر الأبيض الغربية . والقريبة من الشاطىء الفرنسى، كانت عديمة الجدوى ، غير أن كفاح الفرنجة فى حروبهم ضد المسلمين صار مثلا احتذته أوربا فى نضالها ضد الشماليين(١) .

* * *

الخلاصة:أن الدولة الإسلامية قدتحولت إلى دولة بحرية منذ أواخر القرن السابع الميلادى . ولم يعد البحر الأبيض بحراً رومانياً . أو روميا بل صار حداً للعالم الرومانى والبيزنطى . كما صارت جزره داخلة فى نطاق آسيا وأفريقية . ولم تعد داخلة فى نطاق أوربا . وهذا فضلا عن أجزاء كبيرة من سواحل البلقان وجنوبى إيطاليا وجنوبى فرنسا ومعظم شبه جزيرة أيبريا(٢) .

بهذا الوضع غدا البحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وظل كذلك حتى حوالى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . فإن قوة الأسطول الإسلامى منذ العهد الأموى فصاعداً ، ثم قوة الأسطول المصرى زمن الفاطميين

---

(١) انظر Danesly, Op. Cit., pp. 374-76

(٢) مؤنس ص ١٣٢

بصفة خاصة ، ونشاط أسطول أبى الحسين مجاهد الدانى العامرى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) من قواعده فى جزر البليار وسردانية ، كل ذلك أتاح للمسلمين قدراً كبيراً من السيطرة على البحر الأبيض .

والواضح أن سيطرة المسلمين على الجزر ذوات المواقع الهامة ، كانت لأغراض دفاعية ، أو على الأقل انتهت إلى نتيجة ، هى تحقيق أغراض الدفاع فمثلا حمت قبرص ومدينة طرسوس القريبة منها ، شواطىء سوريا ، وكانت كريت تحمى مصر ، كما حمت صقلية شمالى أفريقية ، وكذلك قامت جزر البليار بحماية الأندلس

وبهذه السيطرة تحكم المسلمون فى مداخل البحار المتصلة بالبحر الأبيض فقد سدت جزيرة كريت مدخل بحر إيجة ، كما أغلقت جزيرة صقلية وثغر مونت جارليانو مدخل البحر التيرانى . كذلك سدت جزر البليار وحصن فراكينيتوم خليج ليون Leons(١) .

لذلك يمكن القول إنه منذ أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) صارت هذه الشواطىء فى مأمن من أى غزو خارجى لأول مرة منذ منتصف القرن السابع الميلادى (١) .

* * *

(١) راجع : أرشيبالد لويس ص ٢٤٨ - ٣٢٤